# قضايا الشباب بين العلم والفلسفة

للأستاذ إبراهيم البطراوى

— ٢ —

بق بعد هذا بدعة أخرى ، وهى آخر ما سنتكلم عنه — جاءتنا هذه الأيام من فرنسا ، وفرنسا دائماً بلد العجائب وأم البدع . هذه البدعة الجديدة أعجب ما فى أمرها أنها تدعى لنفسها عراقة نسب فى التاريخ وكرم محتد فى الفلسفة تسمى (الوجودية) L'Existantiolisme

وأعجب من هذا أن يظهر مثيل لهذا المذهب فى ألمانيا على يد الفيلسوف الأديب نيتشه Neizche قبل القرن العشرين ، ويظهر المذهب نفسه بعد ذلك على يد هيدجر فى ألمانيا أيضاً ؛ ثم لم يكد يعرفه أحد هنا حتى ظهر هذه الأيام فى فرنسا على يد سارتر Sartre ؛ فسرعان ما وجدنا له أساتذة عندنا وأعواناً قبل أن يجد سارتر الأعوان والأساتذة ؛ لأن فرنسا غدت بعد الحرب فى فقر من الرجال كما يقول سارتر .

لا يدخلن فى روعكم أن هذه الفلسفة أتت بجديد ؛ فهى عين ما جاء به روسو وفولتير ومزدك والإسماعيلية وماركس : البهيمية والإباحية — مع اختلاف فى الأسماء وتزويق فى الألفاظ ! ولكنها على كل حال تجلت فى ثوب جديد ، وعرفت كذلك باسم جديد يلائم ذوق العصر وثقافته L'existentialisme !

فلنعرف أولا ما هى هذه الوجودية ثم ليكن بعد ذلك ما يكون :

خلاصة ما فهمت من شروحهم بعد دراستى لهذا المذهب وبخاصة ما كتب زعيمهم سارتر ولا سيما فى كتابيه ( الوجود والعدم ) L'être et le néant والتوهم L'imaginaire

أنهم يقابلون قسمة الكائنات الحية فى الدين وعند كل الفلاسفة القائلين «بالإثنينية» Dualism إلى روح وجسد ، أو إلى مثال(١) وصورة ideab ، أو إلى جوهر وعرض . تتقدم الروح فى الوجود ظهور الجسد ، ويتقدم المثال تجسيد الصورة ، ويتقدم الجوهرُ العرض ، إلى آخر تلك الأشياء التى هى فى واقعيتها ومعقوليتها أقرب إلى أن تكون بداهة ؛ فيزعمون أنها خرافات تأصلت فى النفوس بعد أن ابتليت بداء الدين العضال !!

(١) كما عند أفلاطون

فلو سألتهم : إذا كان هذا باطلا حقاً يتجافى الواقع كما تدعون فعرفونا ما لديكم من أنباء الأمور الصحائح لعلنا نهتدى بهديكم ، وجدناهم يعمدون إلى الغموض والتعمية وإلى المراوغة والتكايس ، ولم نزد كل أمرهم على أن يقابلوا شيئاً بشىء فيضعوا لفظاً مكان لفظ ، ويغيروا اسماً باسم ، ويقلبوا وضعاً لينصبوا مكانه آخر وهكذا ...

فيقولون إن أى كائن يتكون من شيئين اثنين هما : جِبِلّته(١) ووجوده .

فالجبلة : هى تلك السمة التى تميز كل نوع من الكائنات من النوع الآخر ؛ فبها تتميز الأنواع .

والوجود : هو الظهور الفعلى النافذ فى هذه الحياة .

فكرة المهندس فى تصميمه لآلة من الآلات مثلا هى جبلة هذه الآلة . وتنفيذ هذه الفكرة أو تجسيدها — كما فى المثال المتقدم — هو وجود هذه الآلة .

من هذا نعرف أن الجبلة هى التى تتقدم الوجود ؛ ولكن هذا عند الوجوديين خطأ محض إذا طبقناه على الإنسان : قلنا أن نطبقه على كل شىء إلا الإنسان ؛ فإن له قانوناً خاصاً غير قانون الدين المتقدم ، فهو — كما فى زعمهم — خطأ !! وغير قوانين الطبيعة ؛ لأن كل قوانينها ( أوهام ) اختلقها العقل وقيد بها نفسه . فليس هنالك شىء اسمه القانون ! ولكن لا بأس عليهم أن يلزمونا بقانون ، ولا بأس علينا إذا أخذنا بقانونهم هذا فهم أئمة الهدى المعصومون ! وهو : أن وجود الإنسان هو الذى يتقدم جبلته !

ثم لم يعد ثمة جبلة خلقها الله ؛ ولكن الإنسان — وهو فى نظرهم ذلك اللقى الذى قذف به فى هذا العالم قذفاً من هاوية

(١) الجبلة (بضم الجيم وسكون الباء) والجبلة (بكسر الجيم والباء) الخلقة والطبيعة (قاموس) . قال الشارح : قوله والجبلة (بضم الجيم وسكون الباء) الخ : قال الله تعالى : « واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين » : أى المجبولين على أحوالهم التى بنوا عليها ، وسبلهم التى قيضوا لسلوكها المشار إليها بقوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته » .

لا يدريها ولا يحب ( إن كان وجودياً عاقلا ) أن يفكر فيها ، فما عليه إلا أن يعرف أنه هكذا وجد ! — هو الذى يخلق جبلة لنفسه بنفسه حال صراعه مع الكائنات الأخرى ومع الطبيعة فى سبيل الحياة ... وما عدا ذلك أوهام وترهات !

وأود أن أطمئن من يجد فى هذه النظرية شيئاً من التناقض أو الغموض بأن سارتر نفسه يعانى هذه الحال ، ويعز عليه أحياناً أن يكون هذا حظه فى فهم المذهب الذى به يعيش ؛ فلا يستحى أن يقول إن التناقض والغموض من أغراض الوجودية ، لأنها تصور ( صادق ) للحياة بما هى ، والحياة كلها متناقضات ومعميات !

فإذا قلنا لهم : فى أى منطق يصح هذا ويستقيم ، وبأى عقل يمكن أن نسيغه أو نقبله ؟ وجدنا الجواب حاضراً — فهم قوم قد أعدوا لكل شىء عدته ، ولكل محتمل جواباً ، ولا يتهافت على الهبوط إلى وكرهم للاندماج فى عصابتهم إلا كل بارع فى فن الجدال والمداورة ، وفى فن التمويه والمكابرة — فما أسرع ما يقولون وما علينا إذا لم تفهم البقر ! .

وفى شرح هذه النظرية والدفاع عنها ألفت كتب وأبحاث . كما أن سارتر يدير مجلة فى فرنسا لهذا الغرض هى ( العصور الحديثة ) les remps Modernes

والشعار الذى يقدمونه لكل مطلع على مؤلفاتهم هو ( الحرية ) وأنهم دعاتها وحماتها . وتحت هذا الشعار — مهما خدعوا بالألفاظ المزورة والاصطلاحات المشبذة — تسير جيوش الإباحية وادعة آمنة . « أنا حر فأنا إذن موجود » هذا هو شعار القوم .

ولكن الحرية هنا ليست بالمعنى الذى نفهمه معشر الشرقيين ، أو الذى يفهمه معظم سكان العالم ، وإنما هى من ذلك النوع الذى نادى به أجدادهم ومن هم على شاكلتهم قبل اليوم بعشرات السنين

الحرية هنا هى أن يتمتع الإنسان بكل شىء وعلى أى نحو بشرط ألا يندم بفعل أى شىء وإلا كان وجوده ناقصاً ( أو كان غير موجود ! ) واسمحوا لى أن أكون أكثر حرية من ذى قبل حتى أستطيع أن أحدثكم عن هذه الحرية الجديدة .

ومهما يكن من أمر ما نادى به سارتر من « وجوب أن يكون الأدب صورة القارئ » أو الكاتب أو حتى البيئة — وقد أثير ذلك فى بعض مجلات(١) مصر العريقة — فإنى لم أقف على هذا متحققاً فيما بين يدى من مؤلفات سارتر ولم يكن ليهمنى أن أقف عليه قدر ما كان يهمنى أن أحلل هذه المؤلفات من حيث هى ومن حيث هى وسائل وضعت لغرض مخصوص هو نشر مذهب معين وأقصد به الوجودية كما يقول بها سارتر .

وما عدا الخطوط الأساسية التى هى أصول ( المذهب ) والتى أشرنا إليها آنفاً ، فإن مما يلفت النظر — وقد أجمع جمهور النقاد الفرنسيين عليه — هو أن سارتر يفرض على نفسه دائماً أن يبرز أشخاصه الروائية وهى « تقترف عملا من الأعمال » مريباً أو غير مريب ، فهذا أمر ثانوى ، لأن جميع القيم المتعارفة كلها ( مُتَوَهَّمات ) — ويشرح اتجاه هذه ( الأعمال ) وما يجب أن تكون عليه كقاعدة مثلى للآداب عامة والوجودى منها خاصة ، فيقول فى بعض رواياته وهى ( سبل الحرية ) les chemins de la liberté

« ها أنذا موجود أتذوق نفسى ، إنى أحس بالطعم القديم للدم وللماء الحديدى ، وذوق هو أنى أتذوق نفسى . إنى أوجد . والوجود هو هذا : أن أتمتع بنفسى وأرتوى منها بدون ظمأ . أربعة وثلاثون عاماً ، أربعة وثلاثون عاماً أتذوق فيها نفسى ، وقد كبرت — قد اشتغلت وانتظرت وبلغت ما كنت أريد : مارسيل وباريس والاستقلال ، وقد انتهى كل شىء فلا أنتظر شيئاً بعد ذلك » (١)

هذا الشذوذ الأعمى هو بيت القصيد فى الوجودية السارترية . ولكى يهون الأمر على الضالين به أخرج قصة غاية فى السخف والتهافت دعاها ( الذباب ) les mouches ترمى إلى إبطال الألوهية إطلاقاً وإلى إنكار القيم الاجتماعية ، وبالتالى يستتبع هذا بالطبع الإباحية الممجبة حسب القانون الذى استنتجناه فى أول الكلام ، وحسب ما يفهم من كلامه فى غير هذه القصة وإن كان يرمى إلى هذا من طرف خفى ، أو من وراء حجاب بتعبير أوضح ، وهنا أخطر الخطر : فلا شىء هو الإله ولا شىء هو العلم ولا شىء هو الحب أو البغض أو الغنى أو الفقر له وجود ، وإنما هناك شىء هو الوجود حقيقة ألا وهو الحرية يتمتع بها الآدميون » ...

( يتبع ) ابراهيم البطراوى

(١) من الاتفاقات الطريفة أنى وأنا أعانى ترجمة هذه العبارة ؛ دخل على الخادم وبيده طائفة من الأوراق والكتب كان قد أيأسه العثور عليها منذ شهر ، ولما تفقدتها وجدت من بينها ما أريد ترجمته منقولا إلى العربية نقلا أميناً بقلم الدكتور أبو ريدة ! فأثرته ، تيمناً بهذه المصادفة السعيدة ، ولم أخالفه إلا فى لفظة أو اثنتين تؤديان المعنى بأدق وأوضح من غيرهما.

(١) « الرسالة »